النكتة الشعبيّة في التراث العربي

د. نضال نصيرات*

لم يهمل العرب والمسلمون في مختلف عصورهم النكتة والطرائف ونوادر الكلام تداولًا وتأليفًا، فالمكتبة العربيّة تزخر بالكثير من كتب التراث، حيث ظهرت مصادر اشتملت على الطرائف والنوادر من بينها: "أخبار الحمقى والمغفلين" و"الأذكياء"، لأبي الفرج الجوزي، والبخلاء للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، والظراف والمتماجنون لابن الجوزي، والفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي، واللطف واللطائف للثعالبي، وجمع الجواهر في الملح والنوادر للقيرواني، وكتاب الدعابة والممازحة للبرقي، ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي، وظهرت النوادر كذلك من خلال مؤلفات أبي حيان التوحيدي "المقابسات" و"الإمتاع والمؤانسة" و"البصائر والذخائر" و"الهوامل والشوامل".

الفنون الشعبية وظهرت الفكاهة والسخرية في التراث العربي من خلال الشعر لاسيما في قصائد عديدة لابن الرومي وأبي العتاهيّة وأبي النواس وغيرهم، ورغم ظهور بعض مؤلفات الفكاهة والنوادر في التراث العربي إلا أنّ تلك النكت والنوادر لم تجمع وتحلل بمنهجيّة علميّة تربط بينها وبين استقراء وفهم الواقع في سياق الأحداث والقضايا التي كانت تشغل الناس آنذاك ويعبرون عنها بالتنكيت، ويلاحظ أنها كانت تكتفي بجمع النكت بدون تحليل منهجي يوضح ما فيها من معانٍ وأفكار ودلالات رمزيّة تعبّر عن قضايا الإنسان وهمومه.

وليس من الغريب أن يحفل التراث العربي بعدد من النظريات والآراء التي جاءت لتفسير الضحك، وقد كانت على مستوى عال من العمق والذكاء، وكان من بينها آراء الجاحظ التي أوردها في كتابه "البخلاء"، المليء بالسخرية والتهكّم والهزل، إذ يتحدّث الجاحظ عن فلسفة الضحك وأهميته في الارتقاء بالخلق وتطييب النفوس. وكان الجاحظ كثير الدفاع عن الضحك، مبينًا أثره في حياة الإنسان، وأنه جزء من طبيعته، وقال: (لو كان الضحك قبيحًا من الضاحك، وقبيحًا من المضحك لما قيل للزهرة، والحبرة، والحلي، والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكًا).

لقد دافع الجاحظ عن الضحك وبيّن قيمته، لكنه رأى أنّ له حدودًا لا ينبغي تجاوزها، ويرى في كتاب البخلاء أنّ الضحك يحتاج إلى وجدانيّة الآخرين، لأنّ ضحك من كان وحده لا يكون على قدر مشاركة الأصحاب، أي أنّ الضحك مشاركة جماعيّة لا تخرج عن كونها ظاهرة اجتماعيّة.

أما التوحيدي فهو يرى أنّ الضحك هو قوّة ناشئة عن تفاعل قوتي العقل والغريزة في الإنسان، والضحك حالة من أحوال النفس تنشأ عندما يرد إليها استطراف أيّ شيء طارئ يجعلها تتعجّب، ويقول في (البصائر): (إيّاك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل الجارية على السخف، فإنّك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك وتبلّد طبعك).

حجا و حماره !

*أكاديمي وباحث أردني

أمّا ابن تيمية فقد كان له هو الآخر موقفه من الضحك، وذهب إلى أنّ النكتة هي " شيء من قول أو فعل يقصد به غالبًا الضحك وإدخال السرور على النفس، وينظر في حكمها إلى القصد منها وإلى أسلوبها، فإن كان المقصود بها استهزاء أو تحقير مثلا، كانت ممنوعة، وإلا فلا، وهي تلتقي مع المزاح في المعنى، وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يمزح ولا يقول إلا حقًا، ومن حوادثه أنّ رجلا قال له: احملني على بعير، فقال: بل نحملك على ابن البعير، فقال: ما أصنع به؟ إنه لا يحملني، فقال (صلى الله عليه وسلم): ما من بعير إلا وهو ابن بعير"، رواه أبو داود والترمذي وصححه). وعلى عكس الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان عمر بن الخطاب يكره النكتة، وقد قال: "من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به". وكان علي بن أبي طالب يقول: "روّحوا القلوب فإنّها تملّ كما تملّ الأبدان"، وقال أيضًا: "من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر".

واشتهرت في التراث العربي مجموعة من الظرفاء والمضحكين. وفي كتابه "الفكاهة عند العرب" يورد أنيس فريحة أخبار كثير ممّن احترف الفكاهة مثل جحا وأبو علقمة وأبو دلامة وأبو النجم وأبو الشمقمق وأشعب الطفيلي وبهلول وهبنقة بن ثروان، وأبو غبشان الخزاعي، وعبد الله شيخ مهو، وربيعة البكّاء، وعجل بن لجيم، وحمزة بن بيض، وأبو أسيد، ومزبّد، وجامع الصيدلاني، وأزهر الحمار، وابن الجصاص وغيرهم، وهذا يدلّ على إنّ الطرفة عند العرب قديمة وليست مستحدثة، وهي تحكي واقعًا سياسيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا. وتشكّل شخصيّة جحا إحدى الشخصيّات التي عرفت بنوادرها ونكتها عبر التاريخ العربي، فما من قطر عربي إلّا عرف جحا بسمته وملامحه وأسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، وما إن شاعت حكاياته وقصصه الطريفة حتّى تهافتت عليه الشعوب، وصمّم كلّ شعب وكلّ أمّة على صلة بالدولة الإسلاميّة (جحا) خاصّا بها، بتحوير الأصل العربي بما يتلاءم مع طبيعة تلك الأمّة وظروف الحياة الاجتماعيّة فيها، ومع أنّ الأسماء تختلف وشكل الحكايات ربّما يختلف أيضًا، إلّا أنّ شخصيّة (جحا) المغفّل الأحمق وحماره بقيت ثابتة لم تتغيّر بصورتها الفكاهيّة الحقيقيّة، لكنّها سرعان ما انفصلت عن واقعها التاريخيّ، وأصبحت رمزًا فنيًا، ونموذجًا نمطيًا للفكاهة في التراث العربي، وقد شكلت نوادره زادًا فنيًا ونفسيًا بعيد الأثر قد يدفع إلى الابتسام والسخرية، أو إلى الضحك والدعابة، لما فيها من انحراف عن المألوف أو تلاعب بالألفاظ، وهي بذلك تشكّل وسيلة دفاع عن الذات العامة بوصفها النموذج والمثال، وتؤكّد التناقض الظاهر أو الخفي المرتبط بالقيم الإنسانيّة العليا، وبالغايات القوميّة التي تعمل الجماعة كلّها على تحقيقها.

ويرى (محمد رجب النجار) أنّ شخصيّة جحا شخصيّة عربيّة حقيقيّة ذات واقع تاريخي، وأنّ نسبه ينتهي به إلى قبيلة فزارة العربية، حيث ولد في العقد السادس من القرن الأوّل الهجري، وقضى الشطر الأكبر من حياته في الكوفة، وقد وردت نوادره وحكاياته من خلال كتب التراث العربي، وبالرغم من اضطراب أخباره أحيانًا في تلك المصادر، إلّا أنّها أجمعت في النهاية على وجوده التاريخي بسمته وملامحه المعروفة لنا.

ويقول الجاحظ إنّ جحا قد عاش مئة سنة تقريبًا، وقد شهدت الفترة التاريخيّة التي عاصرها جحا أحداثًا جسامًا كان لها أبعد الأثر في أسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، منها مأساة السقوط الدموي للدولة الأمويّة، وهيمنة الدولة العباسيّة، بقوة السيف، على مقدّرات الأمور العربيّة الإسلاميّة، وسط مناخ ثقافي حافل آنذاك بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي والعرقي.

وقد شرع اسم جحا يتردّد في أدبيّات القرنين الثاني والثالث للهجرة مقرونًا ببعض النوادر، كما ذكر الجاحظ ولكن ما نكاد نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى تكون نوادره المتواترة شفهيًا قد عرفت طريقها إلى التدوين في أسواق الورّاقين باسم كتاب نوادر جحا. وممّا هو جدير بالذكر أنّ (ابن النديم) صاحب كتاب (الفهرست) المتوفى عام 987م قد ذكر لنا كتابًا قائمًا بذاته اسمه (نوادر جحا) وقد وضعه في أوّل قائمة كتب النوادر ضمن أسماء قوم من المغفلين، ألف في نوادرهم الكتب ولا يعلم مؤلفها. والذي يعنينا هنا أنّ نوادر جحا قد باتت في القرن الرابع الهجريّ من الشهرة والذيوع، حيث وجدت من يحفل بجمعها وتدوينها وتصنيفها.

لقد تردّد اسم جحا ونوادره وحكاياته في كثير من كتب التراث، وقد أورد (الميداني) في كتابه (مجمع الأمثال) مثلا ارتبط بشخصيّة حجا وهو (أحمق من جحا)، وترجم عن حياته أنّه رجل من قبيلة فزارة

العربية، وأنّ كنيته أبو الغصين، وقد وصفه الميدانيّ بالأحمق، ثم أخذ بسرد بعض النوادر التي تؤكّد حمقه، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي قد مرّ به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعًا ، فقال له ما لك يا أبا الغصين؟ قال: إنّي دفنت في هذه الصحراء دراهم، ولست أهتدي إلى مكانها، فقال عيسى: كان يجب أن تجعل عليها علامة، فقال: قد فعلت، قال: ماذا؟ قال: سحابة في السماء كانت تظلها، ولست أرى العلامة.

ومن حمقه أيضًا على حد تعبير الميداني، أنّه خرج من منزله يومًا، فعثر في دهليز منزله بقتيل، فضجر به، وجرّه إلى بئر منزله فألقاه فيها، فتعثر به أبوه فأخرجه وغيبه وخنق كبشا حتّى قتله وألقاه في البئر، ثم إنّ أهل القتيل طافوا في سكك الكوفة يبحثون عنه، فتلقاهم جحا، فقال: في دارنا رجل مقتول فانظروا أهو صاحبكم، فعدلوا إلى منزله وأنزلوه في البئر، فلما رأى الكبش ناداهم وقال: يا هؤلاء هل كان لصاحبكم قرون؟ فضحكوا ومرّوا وقالوا عنه إنّه مجنون.لقد عرف عن جحا أنّه اتصف بالحمق والجنون، وكلتا الصفتين نسبتا إليه، ويؤكّد المؤلفون القدماء من أمثال ابن النديم وابن الجوزي، أنّ الصفة الغالبة عليه هي الحماقة، وأنّ شهرته قد طارت في الآفاق، ثم يدللون على ذلك بمجموعة من نوادره التي تؤكد على حماقته وتحامقه في الوقت نفسه، وهي إن دلّت على شيء فإنمًا تدل على وعيه وفطنته، حيث اتخذ جحا منها أسلوبًا للتعبير عن مواقف غير متعقلة أساسًا.

وقال عنه الإمام الذهبي: (أبو الغصن صاحب النوادر دُجين بنُ ثابت اليربوعيُ البصريُ، رأى دُجين أنسًا، وروى عن أسلم، وهشام بن عُروة شيئًا يسيرًا... قال عبّاد بن صهيب: حدّثنا أبو الغصن جُحا، وما رأيت أعقل منه، قال كاتبه: لعلّه كان يمزح أيّام الشبيبة، فلمّا شاخ، أقبل على شأنه، وأخذ عنه المحدّثون).

وروى (ابن الجوزي) في كتابه (أخبار الحمقى والمغفّلين) عن مكّي بن إبراهيم أنّه قال : (رأيت جحا رجلا كيّسًا ظريفًا، وهذا الذي يقال عنه في الحمق مكذوب عليه، وكان له جيران مخنّثون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه).

والمتتبّع لنوادر جحا يجد أنّها تكتمل المفارقات فيها من خلال ثلاث شخصيّات ملازمة لشخصيّة جحا في معظم نوادره هي: زوجته العنيدة، كثيرة الشجار، وابنه الذي يترسم خطى والده وحماره في استسلامه عن طيب خاطر وإطراقه لجحا وهو يبث له مواجعه وشكواه ويرى فيه وفاءً أكثر من بعض البشر. فهذا مشهد يستنطق فيه طبيعة البشر حين خرج من المدينة راكبًا حماره وبجواره ابنه فأشار الناس عليه واستنكروا قسوته على ابنه فنزل عن حماره وأجلس ابنه مكانه.. فأشاحوا بوجوههم عن ابنه العاق الذي ترك أبيه يتجشّم عناء السير على قدميه، فقرّر أن يترك الحمار وشأنه دون أحمال وسار هو وابنه بجواره، فقال المارة: ما هذه البلاهة يا جحا كيف تسير على قدميك وأنت تملك حمارًا؟ وهكذا الناس لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب وأصبح مثلا شائعًا.ومرة أخرى كان على قارعة الطريق وداهمه الجوع فجلس يأكل من طعامه وزاده بعد أن نزل عن حماره وتركه يسعي على راحته، فمرّ به رجل يعرفه وقال له: هذا لا يليق بك وبفضلك وعلمك وأنّ ذلك يحط من قدرك في أعين الناس!. فقال له جحا: هؤلاء ليسوا بناس ولكنهم بقر، وتجادلا فأسعفته بديهته الحاضرة التي قلّما تخذله عن الإتيان بالحجة الرادعة ونادى بأعلى صوته قائلًا:

أيّها الناس إنّي واعظكم فاستمعوا فأقبلوا من كل صوب وقال: بني آدم كالأنعام وأضلّ وأنتم حطب جهنم.. فتأثّر معظمهم فأفاض عليهم من حكمه حتى قال: أيّها الناس لقد جاء في الأثر أنّ من أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فما بقي أحد منهم إلّا وقد أخرج لسانه وراح يحاول أن يضرب به أرنبة أنفه.. يقول جحا: فالتفتّ إلى صاحبي وقلت له: انظر أيّها الأحمق، هؤلاء بشر أم بقر؟!

وفي نادرة أخرى من نوادره جاء أنّ جحا كان مارًا على أصدقاء له يومًا وقد ركب حماره، وفجأة وجد ذيل الحمار أمامه ورأسه خلف جحا، فوجد أصدقاءه يضحكون، فقال لهم: مالكم تضحكون؟ إنّي لم أركبه خطأ ولكنّ هذا الحمار العنيد رأسه مكان ذيله، وذيله مكان رأسه!

وجاءه جار له مسرعًا وقال: يا جحا لقد ضاع حمارك، ففرح فرحًا شديدًا وسجد شكرًا لله، فقال له جاره : مالك أيّها الأحمق أتفرح وقد ضاع حمارك ؟ فقال له: إني أشكر الله لأنّي لم أكن راكبًا حماري وإلّا كنت ضعت معه.

ومن النوادر التي ارتبطت بزوجته أنّه أراد أن يتزوّج فبنى دارًا تتسع له ولأهله وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ويجعل خشب الأرض على السقوف فراجعه النجّار دهشًا، ولم يفهم ما يعنيه. فقال جحا: أما علمت يا هذا أنّ المرأة إذا دخلت مكانًا جعلت عاليه واطيه، اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج! إنّ نوادر جحا تشكل جزءًا أصيلا من التراث الشعبيّ ليس للعرب فحسب وإنّما من خلال انتسابها إلى بلاد مختلفة، وأزمنة متباعدة، وهذه النوادر ما زالت قابلة للبحث في جوانب اجتماعيّة وسياسيّة متنوّعة يمكن أن تساعدنا على فهم أكثر عمقًا، وأوسع مجالًا للمجتمعات على اختلافها، وحينما ننظر في شخصيّة جحا العربي، فإنّنا نجدها شخصيّة مرحه وتمتلك من السحر والمآثر ما يجعلها في صدارة الشخصيّات القوميّة العربيّة، فهو مثال للإنسان الذي يعيش حياته بطلاقة، حيث يعبر عما بداخله ويرمز له بإشارات وخلاصات إنسانيّة تحاوزت المجتمعات العربيّة إلى مجتمعات أخرى، فامتازت شخصيّته الفذّة بالتعبير عن حكمة فقدان المعايير الصحيحة في المجتمع، وهو بحكمته قد اكتشف بعبقريّته أنّ الإنسان في مواجهة أعباء الحياة لابدّ أن يتحلّي بالضحك وروح الدعابة..فاخترع أسلوبًا للخروج من المكابدة والعناء إلى الضحك والسخرية، حيث تتحوّل المأساة بذلك إلى طرفة من الطرائف وربّما كان ذلك من أهمّ أسباب شعبيته، وعلى الرغم من محاولات بعض الباحثين المحدثين تحديد شخصيّة جحا، فإنّ المرحوم عبّاس العقاد يقول في كتابه (جحا الضاحك المضحك): (شيء واحد ثابت كلّ الثبوت في أمر جحا، ذلك الشيء الثابت، قطعًا، أنّه لم يكن جحا واحدًا، ولا يمكن أن يكون؛ لأنّ النوادر التي تنسب إلى جحا لا تصدر من شخص واحد).

المراجع

1. محمد رجب النجار، جحا العربي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة (العدد 10)، 1978م.
2. أنيس فريحة، الفكاهة عند العرب.
3. عباس العقاد، جحا الضاحك المضحك، دار الهلال - القاهرة - العدد 65، 1956.
4. شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك-رؤية جديدة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2003م.